قالت العرب

الشهدر

العدد 333 - السنة الثانية عشرة - الأحد 12 نوفمبر 2023 م - 28 ربيع الآخر 1445هـ

رأيتك عند باب الكهف عند الدار / معلّقة على حبل الغسيل ثياب
أيتامك / رأيتك فى المواقد فى الشوارع فى الزرائب فى دم الشمس /
رأيتك فى أغانى اليتم و البؤس رأيتك ملء ملح البحر والرمل.

أحمد شمس الدين الحجاجي:

السيرة بنت المجتمعات الديكتاتورية والرواية هى الوريث الشرعى لها

يعد الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى الأستاذ المتفرغ بكلية الآداب جامعة القاهرة مدرسة متفردة تتمتع بالموسوعية التى مزجت ما بين النقد والإبداع بين المسرح والأدب الشعبى وكتابة الرواية والمسرح، كان أول من اشتغلوا على الأسطورة فى الوطن العربى عبر كتابة العمدة "الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر ١٩٣٣- ١٩٧٠، ثم تلته العديد من الدراسات فى هذا المجال مثل "الوظيفة بين الأسطورة والمسرح" وكتاب "الأسطورة فى الأدب العربي" و"صانع الأسطورة الطيب صالح" ودخل عالم السيرة من خلال الأسطورة فى كتابين هما "مولد البطل فى السيرة الشعبية" و"النبوءة أو قدر البطل فى السيرة الشعبية" وفى النقد المسرحى قدم العديد من الدراسات التى بدأها بالتأريخ للنقد المسرحى فى مصر فى كتابه "النقد المسرحى فى مصر" ثم "العرب وفن المسرح" و"أصول المسرح العربي" والمسرحية الشعرية فى الأدب العربى الحديث" و"مدخل إلى المسرح العربي" أما عن أعماله الإبداعية فمن المعروف عن شمس الدين الحجاجى أنه شديد الانتقاد لنفسه، فقبل أن ينشر روايته الوحيدة حتى الآن "سيرة الشيخ نور الدين" التى تحولت إلى مسلسل بطولة هشام سليم وروجينا بعنوان "درب الطيب" كان كتب قبلها ٨ نصوص روائية لم تر النور. وله نص مسرحى واحد بعنوان الخماسين.

وذلك بخلاف عشرات الرسائل العلمية التى ناقشها وأشرف عليها صانعًا لنفسه مدرسة متفردة يهفو إليه التلاميذ من أجل ارتيادها وأن يكون من طلابها وينهلوا من عمله.

ولد أحمد شمس الدين الحجاجى فى عاصمة مصر القديمة الأقصر عام ١٩٣٥ ونال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ٢٠١٠م، ويقول الدكتور أحمد شمس فى حوارنا معه أن الأسطورة هى الأمر دفعته دخول عالم الأدب الشعبي، حتى يتسنى له فهم الأسطورة أكثر، وفيما يلى نص الحوار:

المسرح يحتاج إلى ديمقراطية كى ينمو ويتطور على عكس السيرة

الأبنودى حاول سرقة سيرة جابر أبو حسين وادعى أنه قد كتبها

إبداعنا العربى لم يبتعد عن تراثنا الشعبى والسير العربية أشمل من الملحمة الغربية

● كيف أثرت الأقصر والقاهرة وأمريكا فى تكوينك؟

– الأقصر هى حضارتى وثقافتى الشفاهية، وعالمى فأنا متأثر بأخلاق هذه المدينة وعاداتها وتقاليدها الحسن منها وماهو غير ذلك. أما القاهرة تعلمت فيها أشياء كثيرة ولكنها لم تغير فى شخصيتي، فيها أرى مصر من أقصاها إلى أدناها، وأكثر ما أثر بى فى القاهرة هو الفن، وزملائى وتلاميذى وأحفادي، والتقيت فيها بأناس عظام مثل عبدالمنعم تليمة وصلاح عبدالصبور وسهير القلماوى ونعمان القاضي، فالقاهرة بالنسبة لى هى الكل وليست الجزء، فالقاهرة تلخص مصر كلها.

وفى أمريكا رأيت العام كله فهو البلد العظيم، شاهدت بها الرحمة والظلم والاضطهاد والمساواة، وكانوا يلقبونى هناك باسم الإمام.

● هل عانيت من الاضطهاد بأمريكا؟

– نعم، وكان ذلك من فئة من العرب الذين يقيمون هناك، بينما الأمريكان حين يعرفون إننى مصرى كانوا يرحبون بى بشكل كبير جدا ويسألونى عنها.

● ما علاقتك بالأدب الأفريقي؟

– تعرفت على الأدب الأفريقى من خلال تدريسى بجامعات أمريكا، قابلت العديد من الأفارقة هناك وتعرفت على مفهوم الفن لديهم ومفهوم الكتابة ومفهوم التراث الشعبي، وحين كتبت روايتى الوحيدة سيرة الشيخ نور الدين كانت على أساس أن تكون جزءا من الأدب الأفريقى حيث التراث الشعبى وتأثير على الفن الكتابي، فنحن فى إبداعنا العربى لم نبعد تراثنا الشعبي.

● أكثر أسطورة شغلتك خلال رحلتك الطويلة مع الأساطير؟

– أكبر أسطورة شغلتنى أسطورة إيزيس وأوزريس المصرية، أسطورة، الحكم والصراع عليه، وحورس الذى يصارع عمه انتقاما لأبيه، علاقة هذا الابن بأمه، وحفاظها عليه وتربيته بعيدا عن أعين أعدائها فى الأدغال، من خلال هذه الأسطورة أنا مؤمن أن مصر وحدة واحدة ولا يمكن أن تتقسم.

● ما علاقة الأساطير بالأديان؟

– أخبرتك أن الدين هو الأسطورة، فالأسطورة بشكل عام هى عقيدة بين الناس، موجودة فى كل مكان، فأنا ابن الأساطير، وجاءت كلمة الأساطير فى القرآن الكريم ٩ مرات بمعنى دين السابقين.

● ما الذى دفعك لدراسة الأساطير، والسير الشعبية، وأنت أستاذ نقد مسرحي؟

– خلال رحلتى مع المسرح وجدت أنه لن نستطيع فهم المسرح دون دراسة الأساطير سواء المسرح المصري، أو الغربي، وهو الأمر الذى دفعنى إلى علم الأساطير، وحين درست الأساطير اكتشفت أنه لا يمكن فهم دراسة الأسطورة فى المسرح إلا من خلال معرفة الشعب المصرى وأدبه الشعبي.

● كيف بدأت علاقة الإنسان بالأسطورة؟

– الأساطير عالم حى لا نستطيع أن نفصله عن وجود الإنسان، فالأسطورة تسيطر على حياة كل إنسان حتى وإن كان ملحدًا، فالأسطورة هى أن تؤمن وألا تؤمن، فلم يستطع أحد من الملحدين حتى الآن الخروج عن الأسطورة بدليل أنه يبحث بسبل شتى لهروب منها، فلا يوجد شيء اسمه عدم الإيمان بالأسطورة، فأن تكون مع الأسطورة يساوى أن تكون ضد الأسطورة.

● هل هناك علاقة بين السيرة والمجتمعات الديكتاتورية؟

– السيرة بنت المجتمعات الديكتاتورية، فقد ولدت السيرة بعد فترة القص فى العصر الإسلامى الأول، فى عصر سيطرة بنى العباس على السلطة، وازدهرت فى عهد سيطرة الفاطميين ويشاع أن الفاطميين قد ألفوا سيرة عنترة من أجل إلهاء الناس.

● هل من أسباب لنشأة السيرة؟

– حين تفقد الأمة وجودها تبحث عن البطل الذى ينقذها من أزمتها، فأول بطل صنعته الأمة العربية كانت شخصية ذات الهمة امرأة على الحدود بين العرب والروم، وبعدها ولدت سيرة عنترة وأبو زيد الهلالى وذلك تعبيرا عن مشكلات العصر الذى يعيشون فيه، وتزاد السير مع زيادة الأزمات، وهناك سير نالت إعجاب الجمهور فبقيت فى الأذهان والذاكرة العربية، وهناك ما سقط ولم يصلنا حتى اسمه.

● ما الفرق بين السيرة والملحمة؟

– نحن كعرب لا يوجد لدينا ملحمة لأن الملحمة لا بد أن تكون شعرا، بينما لدينا سير شعرية كاملة، والسيرة الشعرية هى أكثر من ملحمة، وإذا تكسرت هذه السير تحولت إلى ملحمة، وهو الأمر الحادث الآن فى السير العربية، التى ضاعت حلقات كثيرة منها بسبب موت رواتها.

● هل هناك علاقة بين السيرة والرواية؟

– الرواية هى بنت السيرة، ومن الخطأ القول إن الرواية العربية هى بنت الرواية الغربية، فالرواية مثلها مثل السيرة ولدت فى أقوى عصور الديكتاتورية، فنجيب محفوظ حين كتب رواية أحمد عبدالجواد فقد كتب سيرة آل عبدالجواد، وحين كتب الحرافيش فقد كتب سيرة الحرافيش.

● هل تعتقد أن الرواية هى السبب فى ضعف الإقبال على السير الشعبية؟

– بالتأكيد فالرواية هى الوريث الشرعى للسيرة كما أن الرواية الشفاهية قد توقفت، ولم يعد هناك من يجلس ليسمع حلقات السيرة، كما أن التلفاز أثر فى ذلك، بالإضافة إلى تحولنا من المجتمع الشفاهى إلى المجتمع، فالأدب الشفاهى مبنى على الأذن والأدب المكتوب مبنى على التفكير.

● ما الرابط بين المسرح والأدب الشعبي؟

– المسرح أساسه أدب شعبي، والأدب الشعبى فى حد ذاته مسرح فالسيرة مسرح، والقرقوز مسرح، وخيال الظل مسرح، والموالد مسرح وكى تتشكل على خشبة المسرح لابد أن تتحول إلى نص مكتوب، مثل المسرح اليونانى الدينى بطقوسه الذى تحول إلى مسرح مكتوب.

● ما الفارق بين المسرح والسيرة؟

– هناك فارق كبير بينها فالمسرح لا ينمو ويتطور إلا فى عصور الديمقراطية، بينما السيرة تنمو فى عصور الديكتاتورية، كما أن قانون المسرح قائم على الصراع، والتكثيف، بينما قانون السيرة كبير جدًا عكس المسرح فهو شفاهي، لا بد أن يكون فيه البطل والبطل المضاد، والنبوءة الخاصة بالبطل، ثم حرب يقوم بها البطل من أجل إثبات ذاته، ثم قصة حب وزواج، ويقوم حرب من أجل مجتمعه، وكى تتحول السيرة إلى مسرح يجب على الكاتب أن يأخذ لقطة واحدة مكثفة من السيرة يبنى عليها نصه، كما أن الرواية أقرب فى قانونها إلى السيرة لا المسرح.

● ماذا عن علاقة جابر أبو حسين بالابنوي؟

– جابر أبو حسين هو أعظم شاعر سيرة، لديه القدرة أن يصنع من الكلام العادي، مواويل ومربعات، والأبنودى سمع لجابر أبو حسين، فالأبنودى شاعر كبير بالتأكيد، لكن جابر أكل الأبنودى لدرجة أن الأبنودى تمنى أن يكون شعر جابر أبو حسين شعره، لذلك عندما أراد أن يجمع الأبنودى السيرة الهلالية كتب على شرائط الكاسيت يكتبها عبدالرحمن الأبنودى ويغنيها جابر أبو حسين.

● وهل هذا صحيح؟

– هذا أمر غير صحيح تماما، فالأبنودى تصور فعلا أنه قد كتب السيرة، وكان يقول هذه سيرتي، أنا جمعتها من أكثر من راو لكل موهبته الخاصة، وصنعت منها سيرتي، وكما فعل هوميروس فى العصر القديم صنعت، فأنا هوميروس العصر الحديث، والحقيقة أن كل ما فعله الأبنودى أنه جمع سيرة جابر أبو حسين كما هى دون تغيير، وكان يصف الأبنودى جابر أبو حسين فى جلساته الخاصة بالحمار ويقول إنه هو من حفظه السيرة، وهذا القول لا نستطيع إثباته لرحيل من كانوا حاضرين مثل هذه الجلسات، لكن الأبنودى قد كتب بخط يده أن هذه سيرتي.

● حدثنا عن أسباب الخلاف بينك وبين الأبنودي؟

– حين اعترضت على نسب الأبنودى السيرة لنفسه، شتمنى وشتم أهلي، فكتبت مقالة بعنوان انتحال السيرة على طريقة الأبنودي، فقد انتحلها متصورا أنه مع الزمن أن الناس قد تنسى وتتصور أنه هو الذى كتبها، والحقيقة أن عبدالرحمن الأبنودى لم يكتب قصيدة حلوة من بعد تعرفه على أبو حسين فقد كان الأبنودى شاعرا عظيما قبل لقائه به.

حاوره: عبدالكريم الحجراوي

«أحلام شهرزاد» صورة المرأة كما تمناها طه حسين وبشر بها

عرف طه حسين بمواقفه الداعمة والمناصرة للمرأة سواء فى حياته الخاصة أو مواقفه السياسية والاجتماعية العامة وكذلك فى إبداعه القصصى والروائى فقضايا المرأة كانت ركيزة أساسية وفاعلة فى مشروع طه حسين التنويرى وفيما يلى رصد لأهم القضايا التى ناقشها فى الفضاء الإبداعى الروائى فى روايات «ما وراء النهر، ودعاء الكروان، وشجرة البؤس، وأحلام شهرزاد»

ما وراء النهر

يتعرض طه حسين فى قصة «ما وراء النهر» بشكل غير مباشر إلى الظلم الواقع على المرأة وإن كان موضوع هذه الرواية الأساسى يتعلق بالظلم الاجتماعى الحادث فى مصر وانقسام المجتمع إلى فئتين عليا تمتلك كل شيء يعبر عنها ساكن القصر وطبقة دنيا تعمل لدى الطبقة العليا يعبر عنها سكان القرية والعلاقة القائمة بين الطبقتين هى علاقة الخدم والعبيد مع السادة الملاك.

تعبر القصة عما يجرى فى المجتمع المصرى من وجهة نظر الراوى التى يكشف فيها عن مظاهر الظلم الذى يقع على المرأة فى الطبقتين العليا والدنيا، ففى الطبقة الدنيا بنات الفلاحين معرضات لأن يلهو بهن أصحاب القصر أثناء عملهن فى الحقول والتغرير بهن كما فعل بطل القصة الباشا رؤوف صاحب القصر، وكذلك ابنه نعيم إلا أن الفارق بينهما أن الابن تعلق وأحب الفتاة خديجة ابنة محمود إسكافى القرية بصدق وقرر الزواج منها «إنما هى فتاة من أهل القرية راقنى منظرها وفتنتنى سحر لحظها، فصبت إليها نفسي، وانتهى الأمر بنا إلى غايته من الإثم. لم أتحرج آنا، ومتى تحرج السيد من اللهو بإحدى إمائه ولم تتحفظ هي؟! ومتى تحفظت الأمَة فلم تستجب لأحد سادتها؟!».

إلا أن هذا اللهو ينقلب إلى جد، فحين رأى نعيم خديجة فى موسم الحصاد خرجت مع أترابها من بنات القرية إلى الحقول، ليعدن فى نهاية اليوم بأجر ضئيل، راقه منظرها الرائع فى ثيابها الرثة، فلما أطال النظر إليها اشتد إعجابه بها ثم ميله إليها، ويعلن عن حبه لها قائلا «لقد استأثرت هذه الفتاة بنفسي، وما أرى أن الأمر سينتهى بينها وبينى كما تعودت الأمور أن تنتهى بينى وبين أترابها من حسان الريف.» لذا يصر على الهرب معها والزواج منها فى العاصمة ضد رغبة أبيه.

أما والدة نعيم فتعانى الأمرين من زوجها الذى يتهمها بأنها لم تحسن تربية الابن، بالإضافة إلى خيانته المتكررة لها، فيصف الراوى ما تتعرض له بقوله « ولم يكن قصر رءوف الذى نشأ فيه نعيم إلا واحدًا من هذه القصور؛ سعادة ظاهرة وشقاء خفي، أب يلهو ما وجد إلى اللهو سبيلا، وأم تشقى ما استطاعت المرأة أن تحتمل الشقاء».

تتعرض خديجة إلى ظلم بين آخر حين يتبعها أخوها إلى القاهرة ويقتلها باسم الشرف ويسلم نفسه للشرطة «قال رءوف: نعم! ماتت خديجة، قتلها أخوها انتقامًا لشرفه فيما يظهر، كأن لأمثال هؤلاء الناس شرفًا تُراق فى سبيله الدماء، ويُحتمَل فى سبيله العقاب والعذاب، لقد تغيرت الدنيا وفسد الناس، وهبَّت على هؤلاء البائسين من أهل القرية وأمثالهم ريح لا أدرى من أين جاءتهم، ولكنها حملت إليهم شرًّا عظيمًا؛ علمتهم أن لهم شرفًا، وأنهم يستطيعون أن يغضبوا لهذا الشرف، وأن يسفكوا فى سبيله الدم، ويتعرضوا فى سبيله للموت».

دعاء الكراون

كانت قضية الشرف هى العنصر الأساسى الذى تقوم عليه رواية «دعاء الكروان» درة إبداع طه حسين وفيها يدين بصورة لا لبس فيها المجتمع الذى يتغول على حق المرأة، فنحن أمام ظلم فداح لا يقع تقريبًا إلا على النساء أم تدعى «زهرة» تزوجت من فاجر داعر زير نساء «وكانت أمُّنا أشقى الناس بهذه الخطوب، تتأذى بها فى ذات نفسها — فكم حرَّقتها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة — وتشفق منها على زوجها هذا الماجن؛ فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره،» وقتل فى إحدى جولاته الماجنة التى أفقدت أهله حتى حق الأخذ بثأره ولا يكون ذلك فى العرف سوى لتعديه على حرمة شرف غيره مخلفًا بذلك العار لزوجته وابنته.

ولا تجد الأم فى مجتمع قروى عائلا لهذه الأسرة المكونة من أم وابنتين لا حيلة لهن، فأهل القرية يضيقون بهن ذرعًا، ولا يجدن الحماية، ما يضطر المرأة إلى مغادرة القرية مع بناتها إلتماسًا للرزق بعد أن تخلى عنهن الجميع خال وعم ويصف ذلك الحال طه حسين قائلًا «إنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتيها التعيستين، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء، تكره مكانهن منها، وتنفيهن عن الأرض، وتزودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة، وتُكرههن على عبور البحر والاندفاع فى أرض الريف يلتمسن حياتهن فيها يائسات شقيَّات، ليس لهنَّ سند يعتمدن عليه، ولا ركن يأوين إليه؛ وإنما هى امرأة وحيدة لها حظ من جمال يُطمِّع فيها الناس ويُغرى بها أصحاب المجون، وصبيتان بائستان لا تكادان تُحسنان شيئًا». مما يشعرهن بالاغتراب والوحدة والشعور بالضعف فالمرأة المجنى عليها وحدها تتحمل عواقب جرم لم ترتكبه ولم يكن لها يد فيه، تُترك مع بناتها لتصارع الحياة «قالت: لقد فكرت فى هذا، ولكنى أرى أن ليس إليه من سبيل! فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن، ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أبٌ أو أخٌ أو زوج، قلت: فليس لنا أب ولا أخ ولا زوج! قالت: بل لنا من يحمينا، وقريتنا التى نفينا عنها أحق بنا ونحن أجدر أن نعود إليها، ولئن بلغناها ليعلمن الذين جفونا ونفونا أن من العار أن تنفى الأسرُ نساءها وكرائمها! فالمرأة عورة يجب أن تُستر، وحرمة يجب أن تُرعى، وعرض يجب أن يُصان».

فالخال ناصر الذى تخلى تمامًا عن دوره وترك هذه الأسرة لضعيفة لتنهش فيها الكلاب الضارية وإن يغرى ابنتها الكبرى هنادى أحد شبان وهى قليلة خبرة فى الحياة، يقوم بقتلها وهو أحد الذين جنوا عليها، ولم يحبوا على أبناء أخته فتقول أمنه «حتى إذا صُرع أبونا ورأيت كيف استقبل أمى بأنباء هذا المصرع وكيف قسا عليها وعلينا، ولم يفكر فى أنها أيِّم وفى يكن انتصارها على الملوك من غزو مدينتها سوى بالعلم الذى يظنه من يجهلون فنونه سحرًا. «فلما سمعت مقال أبيها ورأت التفاته إليها، قالت فى طمأنينة وهدوء: «إنه السحر لأنه غير مفهوم، وسيظل سحرًا ما دام سرًّا مكتومًا، فإذا أزيلت عنه الأستار وفُهمت مخبآته أصبح علمًا شائعًا يشارك فيه القادرون على فهمه والنهوض بأعبائه».

وتنجح شهرزاد فى الأخير عبر فاتنة فى تحقيق المدينة الفاضلة بعد تنازل لها والدها عن الحكم. وتجعلهم يردون الحقوق إلى أهلها وتجبرهم على التنازل عن الحكم صاغرين فهم الأساس فى إشعال هذه الحرب.

«إن هذه الحرب إنما أثيرت لأن هؤلاء الملوك يحبوننى ويخطبوننى، وأنا لا أحب منهم أحدًا ولا أرضى لنفسى من بينهم زوجًا، وكنت تذكرنى بأن هذا الأمر لا يعنى رعيتنا ولا رعايانا من قريب أو بعيد، فهذا الظلم الصارخ، وهذا العدوان المنكر، وهذا الإهدار لحقوق الشعوب، وهذه التضحية الآثمة بالنفوس التى أمر الله أن تُعصَم والدماء التى أمر الله أن تُحقَن والحرمات التى أمر الله أن تُرعَى، فى سبيل شهوة فردية لا تعتمد على ما يشبه الحق أو العدل؛ كل هذا خليق أن يهدر حق مقترفيه فى طاعة الشعوب، وكل هذا خليق أن يلغى حق مقترفيه فى النهوض بأمر السلطان.

فهؤلاء المعتدون عندى ليسوا ملوكًا ولا أشباه ملوك، وإنما هم عندى طغاة ظالمون، فإن للملك حقوقه، ما فى ذلك شك؛ ولكن هذه الحقوق رهينة بواجبات ينبغى أن تؤدى؛ فإذا ضيعت الواجبات أهدرت الحقوق».

ثم تحكم بأحكامها العادلة

«قالت الملكة وهى تضحك: «بل طغاة بغاة يا سيدي، فيجب أن يستقبلوا كما يستقبل الطغاة البغاة. تلقّهم أنت إن شئت. أما أنا فلن ألقاهم، ولك أن توكل بلقائهم من أحببت، فإذا مثلوا بين يديك، أو بين يدى وكلائك؛ فخيرهم بين الموت وبين أن يشهدوا على أنفسهم بالطغيان وإهدار حقوق الشعوب، فأيهم اختار الموت فجرعه كأسه، وأيهم اختار الحياة — وكلهم سيختارها — وأشهد علىِ نفسه أنه طاغية مهدر لحق شعبه، فليخلع نفسه من الملك وليُلقِ إلينا بيده، ونحن نسلمه بعد ذلك إلى وطنه يصنع به ما يشاء، ثم لا تراجعنى فى أمرهم بشيء قبل أن تنفذ ما قدمت إليك.»

وتنتهى الرواية النهاية السعيدة

«وتم كل شيء يا مولاى كما أرادت الملكة، ورُدت إلى شعوب الجن حقوقها المغصوبة، وحرياتها المسلوبة، وتأدّبت فاتنة فى شعبها وفى الشعوب الأخرى بأن أمور الأمم إليها؛ تشرك فيها من الملوك والرؤساء من تشاء وكيف تشاء، وتقيد ملوكها ورؤساءها من القوانين بما تحب، وتشرف على إنفاذ ملوكها ورؤسائها لإنفاذ هذه القوانين، وتتخفف من الملوك والرؤساء إن خالفوا عن هذه القوانين..».

فتلك هى الصورة التى تمنها طه حسين للمرأة المصرية وسعى أن تكون عليها، ولم يكن يرى ذلك سيتحقق إلا بتعلم المرأة وامتلكها لمصيرها.

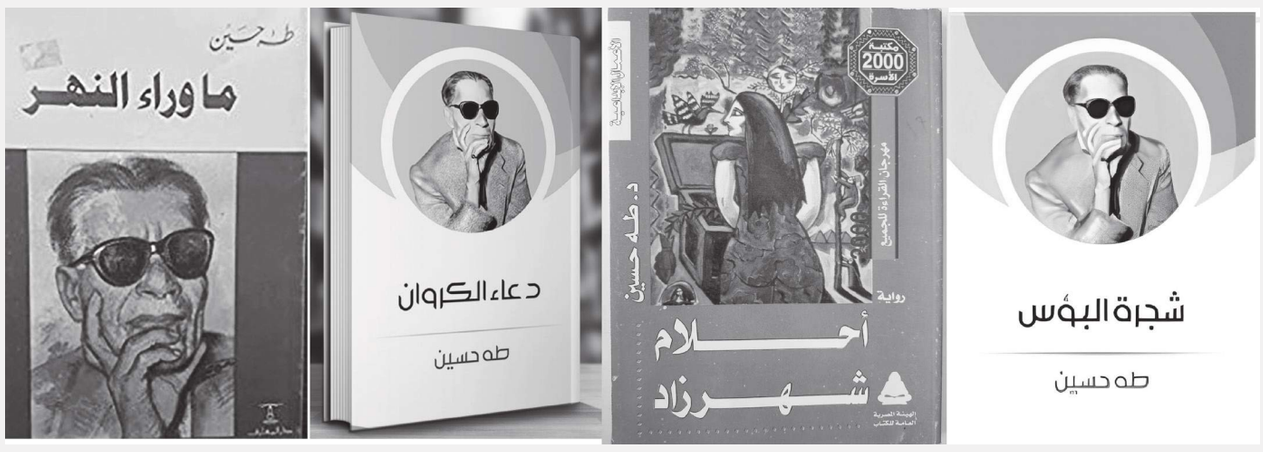

رصد الواقع المأسوى للنساء المصريات فى عالمه الروائى

شجرة البؤس

أما عن رواية شجرة البؤس فهى أكثر أعماله التى ناقش فيها قضايا المرأة بوضوح شديد رافضًا تعدد الزوجات وبعدد الآثار السلبية التى تترتب عليه، ويفند العبارات الدينية الشائعة والفهم المغلوط للدين الذى يحط من شأن المرأة، ويدين ضرب الزوجات وتزويج القاصرات وعدم حرية المرأة فى اختيار شريك حياتها.

يظهر فى هذه الرواية المصير المأساوى الذى تعانى من النساء فى المجتمع المصرى وقتها وربما حتى الآن، فأم خالد تموت حسرة عن أن ابنتها الذى جرى تزويجها رغمًا عنها، وسكينة تلك المرأة المسكينة دميمة الخلقة تؤذيها عبارات الناس، وتعيش فى ذعر أن يتزوج عليها أو يطلقها زوجها خالد حتى يصيبها مس من الجنون وتفقد عقلها وتعيش حياتها بلهاء، أما أم سكينة فقد ماتت ولم تنفذ وصيتها فى أن تدفن قرب زوجها فى القاهرة التى هجرت منها بعد وفاة زوجها وعاشت حياة صعبة بعد أن مات ولداها الذكور لتموت غربية وبعد موتها لا يسمع لنداءاتها التى تأتى إلى ابنتها تطلب بأن تدفن قرب زوجها كما أوصى زوجها.

ولم يقل نصيب الحفيدتين سوءًا عن الأم والجدة، بالحفيدة الكبرى زُوجت صغيرة وعاشت حياة صعبة، أما الصَغرى جلنار فزوجة أبيها «منى» عاملتها كخادمة وأخذت منها خطيبها الذى خطبت إليه فى الطفولة إلى ابنتها الكبرى تفيدة وبقيت جلنار عانسًا دون زواج تعانى الأمرين فى منزل أبيها تعامل معاملة الخدم ويساء معاملتها من أهل البيت وتعير بشكلها القبيح.

وعانت زوجة الحاج مسعود لأن كل خلفتها بنات وهى من طلبت من زوجها أن يتزوج عليها واختارت له الزوجة، إلا أنه ظلت تؤنب نفسها على أنها لم تنجب أنثنا يتيمتان، وإنما فكر فى الأسرة وحديث الناس عنها، وما يجرُّ عليها هذا الخطب من عار».

يأتى الخال ناصر على الطرف الأضعف الذى غرر به ويقتله ويترك الفاعل الحقيقى يَهرب دون عقاب على جريمته التى ارتكبها ويمضى فى شئون حياته عابثًا مطمئنًا بعد أن شاع أن هنادى قد مات فى الوباء. هذا القتل شائعًا للنساء باسم الشرف «لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله، واستفتت هنادى حظها من الحياة، وماتت لأن شابًا آثمًا أغواها ولأنها لم تُحسن أن تدفع عن نفسها غوايته.». ميتات بشعة تلقاها النساء بسبب جريمة وقعت عليهن ويهرب الفاعل الحقيقى بفعلته، فاللوم والذنب لا يكون إلا على الضحية «تمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفة مخيفة مروعة مثيرة للروع، أما هذه التى تسمى أمينة فقد احتز رأسها إحتزازًا، وأما هذه التى تسمى مارتا فقد شُق صدرها شقًّا، وأما هذه التى تسمى ملزمة فقد يقال إنها دفنت حية ولقيت حتفها مختنقة فى التراب.».

تغلب على الرواية الشخصيات النسائية فهى مسرودة على لسان آمنة أخت القتيلة وكل شخوصها تكاد تكون نساء زهرة هنادي، خديجة ابنة المأمور التى حظها أفضل من غيرها من نساء ذلك الزمان بأن كان يعلمها وأبوها فى المنزل، الخادمة سكينة ضحية جديدة الخادم فى بيت المهندس اللاهى التى خلفت هنادي.

وهناك هذه الرؤية لتعليم الفتيات على أنه فساد لهن فعند سيدها الجديد «وبناته صالحات لم يفسدهن الذهاب إلى المدارس ولا استقبال المعلمين. فهذا الرجل أمير يضنُّ ببناته على هذا الفساد، ويرسل أبناءه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصيروا فيما بعد موظفين كبارًا كالمأمور والقاضى والمهندس»

البنين. مصائر النسوة فى هذه الرواية جلها اتصفت بالمأسوية يعانين من تعدد الزوجات والصراع من ضرائرهن والخوف من الطلاق وتزوجهن قاصرات وعدم أخذ رأيهن فى الزواج. وإن كانت هناك نماذج جيدة لرجال أحسنوا إلى نسائهم مثل التاجر عبدالرحمن الذى أعتق أمته وتزوجها وأنجب منها سكينة وابنين ورعى فى زوجته الله ولم يتزوج عليها وكان يشفق على ابنته ويحسن إليها. وهناك أيضًا نموذج الشيخ مسعود الذى رفض أن يتزوج على زوجته لأنها تنجب له البنات وعامل بناته بالحسنى وبنى لك منهن دار بالقرب منه للتزوج فيها، وحتى لا تشعر زوجته بالوحدة كان يأخذها معه إلى الحج الذى كان يتكرر بشكل دوري.

أحلام شهرزاد

بينما تقوم البنية الحكائية الأساسية لرواية شهرزاد على قضية نصرة المرأة وتبدأ أحداثها من الليلة التاسعة بعد الألف وتظهر فيها شخصية شهرزاد كامرأة حكيمة استطاعت ترويض بربرية شهريار على ما ارتكب من آثام وتجعله يندم على ما اقترفه من آثام لأن بداية التوبة هى الندم.

تظهر شهرزاد رمزًا للحكمة والعقل وليست جسدًا يتلهى به الرجال، ويقدم طه حسين صورة أخرى للمرأة وهى «فاتنة» ملكة الجن ترمز إلى المرأة عالم الغرب فيه المرأة تتحكم فى مصيرها وسيدة قرارها ترفض الزواج من ملوك الجن، لذا عزموا أمرهم على اقتحام مدينتها وأخذها أسيرة لمن يفوز بها بعد وفاة أبيها إلا أنها تنتصر عليهم وتذلهم وتحقق العدالة وتنقذ شعبها وشعوب الملوك الآخرين الذين أشعلوا الحرب تلبية لشهواتهم ورغباتهم عبر العلم الذى يراه الآخرون سحرًا؛ لكنه فى حقيقته هو العلم.

ولم يكن نجاح هذه المرأة فوزها على أعدائها سوى لأنها تسلحت بالعلم ففاقت الجميع أى أن المرأة لن تصل إلى ما تريد ومكانتها الحقيقية إلا من خلال العلم الذى عن طريقه تستطيع أن تقف فى وجه تسلط الرجال كما فعلت شهرزاد مع شهريار من ردته عن غيه وفاتنة مع ملوك الجن بأن وضعت حدًا لطغيانهم وظلمهم أن فاتنة التى تمثل المرأة لقمة سائغة منتظرين وفاة والدها الملك كى ينفذوا مآربهم

«ثم كان بينهم الاتفاق، فأجمعوا رأيهم على أن ينتظروا بك ما بقى من عمرك، وهم يرونه قصيرًا وأراه طويلًا، وقد أزمعوا إذا تركتَ هذه الحياة أن ينصبوا لى الحرب مؤتلفين لا مختلفين، ومتظاهرين لا متدابرين، وألا يكفوا عن هذه الحرب حتى يدمروا ملكى تدميرًا، وأيهم ظفر بى فأنا أسيرته، يمسكنى فى قصره كما تُمسَك الإماء؛ لا يكرمنى بالزواج ولا يؤثرنى بالحب، وإنما يصبُّ عليَّ من العذاب ألوانًا ويسومنى من الضيم فنونًا، وقد تقاسموا على ذلك بأغلظ الأيمان وأشدها إحراجًا، وكتبوا بذلك وثيقة أودعوها مكانًا أمينًا حصينًا، هناك فى قاع البحر المحيط وراء أعمدة هرقل».

إلا أن فاتنة ابنة ملك الجن استطاعت أن تفسد كل هذا من خلال علمها

«قال الملك: «هو ذاك يا ابنتي، ولكنى أريد أن أعرف كيف انتهيت إلى هذه المنزلة من العلم بالسحر والنفوذ إلى أسرار الكون؟» قالت فاتنة: «إنما انتهيت إلى هذه المنزلة لأنى صرفت عن هذه الحياة الباطلة التى يحياها بنات الملوك فى ظل آبائهن ناعمات بالعيش الرخيِّ، طامعات فيما تتكشف لهن عنه الأيام، مفكرات فيمن يسعى إليهن محبًا أو متملقًا أو خاطبًا. صرفت عن هذا كله وعن أشباهه إلى النظر فى حكمة الأولين والمحدثين، وإلى كثير من التجربة والاختبار».

وترفض فاتنة التى هى صورة من شهرزاد فكرة العالم الغيبى والخرافات فلم

د. عبدالكريم الحجراوي